الفصل التاسع

هندسة القرية وإعادة هندستها في البحث عن ثروات ريفية

أعلى ما في أفكار الغربيين عن الصين والهند هي صور الفقر اليائس: أطفال مصابون بسوء التغذية يمشون مجهدين، حفاة في طريق مغبرة، وأبقار مهزولة في مجرى نهر جاف، وفلاحون في الملابس الرثة يجهدون في حقول الرز. وفي الهند يعيش عدد يبلغ 290 مليون نسمة في فقر طاحن، وهو رقم يرتفع إلى 390 مليون نسمة إذا قيس الفقر بالمعيار العالمي لأولئك الذين يعيشون على أقل من دولار واحد في اليوم[1]. والحالة في الصين أفضل قليلاً. ففي العام 2001 قدر البنك الدولي أن 400 مليون صيني كانوا قد ارتفعوا من الفقر في العقدين السابقين من الزمان. وبحلول ذلك العام كانت الصين قد وفت بأول أهداف الأمم المتحدة في التنمية الألفية، وهي أن تخفيض تفشي الفقر في العام 1990 إلى النصف، وهي بهذا تكون قد فعلت ذلك قبل أربعة عشر عاماً متقدمة على العام 2015 وهو العام المستهدف الذي وضع للعالم النامي في مجمله[2].

وصعود دخول الصين بين سكانها الريفيين هو دليل على كفاءة الحكومة في التخطيط للتغيير، وقيادة التغيير، وتنفيذه. وفي الهند، على كل حال، لم يترجم التحرير السياسي للشعب والتمكين له عند أسفل قاعدة المجتمع إلى مكاسب اقتصادية واجتماعية. فالحكومة لم تتعلم بعد من القطاع الخاص والمجتمع المدني، اللذين يربحان حالياً الجيوب الفردية من الفقر.

وإلى درجة واضحة يعيش أكبر الأقسام من السكان الصينيين ومن الهنود في القرى. ولفهم ما تقوم بعمله الصين والهند لإعادة هندسة شروط المعيشة في القرى الريفية، زرت قرية تشيو في الصين ورابطة النساء للتوظيف الذاتي في ولاية الهند الغربية من غوجارات. كلاهما مكان للأمل. فوسط فقر ريفي كثير توجد أماكن تتغير حياة الناس

فيها نحو الأفضل. وعلى العموم، فليس من الصعب لهذه التغيرات أن تتضاعف، وبهذا فهي تستحق انتباه العالم ودعمه. والصين والهند، برغم امتلاكهما نظامين مختلفين اختلافاً ضخماً وسياسات تاريخية نحو سكانهما الريفيين مختلفة اختلافاً ضخماً كذلك، فهما تتقاسمان الحاجة إلى المزيد من أماكن الأمل.

تحت مظلة الحزب

مقاطعة هينان، واسمها يعني "جنوب النهر الأصفر"، هي واحدة من أكثف مناطق الصين سكاناً، وهي موطن لما يزيد على مئة مليون نسمة. والعاصمة، جينغجو، كانت مركزاً من أهم المراكز الصناعية للصين الشيوعية وهي نقطة لقاء رئيسة للسكك الحديدية على خطوط لونغهاي وجينغيوانغ (على التوالي شرقاً غرباً وشمالاً جنوباً) من السكك الحديدية.

وقفتي الأولى في هينان كانت في عاصمة حكومة المقاطعة، في تشينغيوان، وهي بلدة يسكنها مئة ألف نسمة. وأقمت في الفندق الرئيس، الذي افتقد معظم التسهيلات المرتبطة بالمدن الرئيسة، ولكنه نظيف بعناية فائقة، أكثر مما يمكن أن يقال عن الفنادق الموازية في الهند. عند الفجر انطلقت في ركضي الصباحي عبر الشوارع المجاورة ووجدت مروراً بكثافة كبيرة نوعاً ما، يشير إلى مدينة في حالة حركة. الكلاب الضالة والقطط تتجول في الشارع، بما يشبه كثيراً جداً مدينة هندية. وكان باعة الشوارع يقومون بعمل نشيط، وهم يقدمون مادة تشبه الحلوى المقلية (الدونت) وحساء الفاصولياء الذي يتصاعد منه البخار لحشود تجمعت حول أفرانهم الساخنة.

وكان ما أثر بي أكبر الأثر هم منظفو الشارع، وهم جادون في العمل في ساعات الصباح الباكر، وأقنعة الوجه تحميهم من الغبار. وكان الشارع خالياً تماماً من القمامة. كم كان هذا مختلفاً عن الهند، التي تستأجر فيها حكومة المدينة منظفي شوارع منتسبين لاتحادات العمال وهم يستطيعون أن يخفقوا في الحضور، ولا يقلقون بشأن طردهم من العمل؛ لأن التشريع الموالي لليد العاملة والعملية السياسية الحكومية المتصلة بالانتخابات تمنع أي تهديد بعمل حكومي ثأري من أن يكون قابلاً للتصديق. وحتى لو كانت حكومة

المدينــة هي التي رتبت عقــد نظافة الشوارع لمستثمر خاص، لضمــن الفساد على الأرجح أن يمنــح العقد إلى صديق لن يقوم بــأداء العمل. وإن أي ركض في مدينة هندية وحتى لو كانت كبيرة، دع عنك أن يكون ركضاً في مدينة أصغر تقبل المقارنة مع تشينغيوان، سيكون معرِضاً لحالة وسخة بائسة ولو كان ركضاً في وقت الفجر.

سقت السيارة إلى قرية تشيو، وتأثرت بالطرق المعبدة التي سافرنا عليها، وهي منشأة علــى نحو حسن مثل الطريــق الرئيسة في ماساتشوسيتس التــي عرفتها في الوطن. وأدت الطــرق تماماً إلى حقول الذرة على حافة القرية. وبسبــب الأمطار الغزيرة غير العادية، كانــت أميال من عرانيس الــذرة منتشرة على جانب الطريق، مجموعــة بعيداً عن المرور بشــكل أنيــق، والعائلات تقلب الــذرة بالأمشاط جيئــة وذهاباً لتجفيفها قبــل أن تتعفن. وفي المقابــل، فإن منظر المنتج الزراعــي المجفف في الشمس في الهند هو منظر شائع على الطرق الرئيسة، وهو جزء من روتين الفلاح لا رد فعل على سقوط مطر غزير غير عادي أو في غير موعده وهو في الغالب يتسبب في تعطيل المرور.

ولم تُظهِر قرية تشيو الازدهار على وجه الدقة، ولكنها على الأقل أظهرت غياب اليأس الذي تظهِره كثير من القرى الهندية. وكان هناك بعدٌ عن الرسميات بشكل ودود. وعلمت أن الســكان، وهــم ألف تقريبــاً، مكونون من خمســ مجموعات مرتبطــة ارتباطاً كاملاً، وتضــم كل مجموعة عشريــن عائلة إلى ثلاثين عائلــة يشتركون في اسم عــام. وأمضيت أمسيــة في بيت ديو ياشين، الذي تفضل ودعا آخريــن عديدين من أسرته الممتدة للزيارة معــي. وكان بيت ديو مصنوعاً من الآجر الصلــب. ومن أجل اجتماعنا رتبت الكراسي في ساحة الدار التي زرع فيها الملفوف، والفليفلة الحارة، وأشجار البرتقال. وعلى الرغم من أن ساحة الدار كانت مضاءة إضاءة خافتة، كان البيت يمتلك الكثير من الكهرباء.

جلســت على كرســي مؤقت بلا ظهر، وكنت محاطاً بعشرين رجــلاً على الأقل، وكلهم ينظــرون إليّ بفضــول. بعضهم ابتسم بــأدب، في حين بقي الآخرون بــلا تعبير ينتظرون مترجمنــا. بعض الحاضرين في المجموعة مثَّــل ثلاثة أجيال: الجد، والأب، والابن. وكنت آمــل أن يتمكــن المترجــم، وهو شخــص داخلي منهم يثق بــه هؤلاء الرجــال، من جعلهم

يشعرون بأنهم آمنون بما فيه الكفاية؛ ليتكلموا بانفتاح. وإلا فأنا كنت أعرف أنهم سيتكلمون ما كان متوقعاً. وكان كل واحد منهم مرتدياً ملابس غربية، وأشْيع ما كان هو البنطال الجينز والسترة. أما النساء فكن يعتنين بالأطفال. طفلان صغيران في السنة الأولى أو الثانية توجها مباشرة إلى طاولة تعرض وجبات خفيفة أساسها صلصة فول الصويا، والبرتقال، والمكسرات وقاما بأكل طاسات من خاثر صلصة فول الصويا وهما يحدثان صوتاً في أثناء شربها. وفول الصويا مادة من طعام هينان، والكثير يزرع هناك، على الرغم من أن الصين تستورد قسماً كبيراً من حاجاتها من البرازيل. وفي الوقت الذي شغل فيه الكبار أنفسهم بأكواب لا نهاية لها من الماء الساخن المزين بأوراق الشاي، مع وجبات خفيفة من بذور اليقطين والفستق (الفول السوداني)، وهذه الأخيرة ناعمة ورطبة حين تقشر طازجة، وهي مختلفة تماماً عن الفستق الصلب المجفف المعروف في الأسواق الكبيرة الغربية. وهذا ما استحضر لي ذكريات الطفولة السعيدة عن استهلاك بذور البطيخ المقشرة، وما يشبهها من الفستق والمكسرات الطازجة في القرى في ولاية البنجاب في شمال الهند. ولكن كان هناك اختلاف واحد، على كل حال، وهو أن رائحة البرتقالات المقشرة في الصين كانت مختلطة مع الدخان. ففي الواقع كان كل رجل يدخن سيجارة منتجة محلياً. ورجال الأعمال المستثمرون المحليون احتكروا صناعة السجائر في الصين، كما اكتشف ذلك بشكل مؤلم فيليب موريس في السنوات القريبة. وفرض الضرائب على الاستهلاك المحلي للسجائر، هو طبعاً، مصدر عائد كبير للحكومة المحلية.

وكان ظاهراً أن مضيفيَّ يمتلكون الكثير من الوقت، ولكن طبيب القرية البالغ من العمر ستين عاماً وصل، وقد انقطع نفسه، واعتذر عن مجيئه متأخراً، وقال: إنه سيكون عليه أن يغادر بعد قليل جداً؛ لأن عنده صفاً من المرضى الذين ينتظرون ليروه. وكان صادقاً مخلصاً في كلمته، فغادر بعد خمس عشر دقيقة من وصوله. وفي هذا الوقت، علمت أنه كان قد راهن على سنتين من تدريبه في الطب الأولي الصيني والغربي لتحويلهما إلى مسار وظيفي طوال ثلاثين عاماً بصفته العامل الموفر المحلي للصحة. وقال: إنه كان قد تقرر، سواء منه هو أو من سلطة ما أخرى، فهذا لم يكن واضحاً، أن عمره جعل المزيد من التدريب استثماراً غير سليم. وكنت محتاراً من أنه لا يوجد خلف له في التدريب،

ولكنني بعدئذ عللت ذلك بأن البنية التحتية الحديثة جعلت وجود الخلف له غير ضروري. فالطرق الجيدة تعني أن الرحلة من القرية إلى مستشفى المقاطعة تستغرق أقل من نصف ساعة، وأن سيارات الإسعاف حين استدعائها تصل بشكل موثوق مثلما تصل في الولايات المتحدة. ومرة أخرى كنت متأثراً بالمقارنة مع القرى الهندية، التي لا يتوافر فيها إلا أبسط الطبابة الأولية، وسيارات الإسعاف لا وجود لها.

كان الكثير قد تغير في حكم قرية تشيو في العقد الماضي من الزمان. أولاً، كانت سيطرة الحزب الشيوعي الصيني أقوى من أي وقت مضى مطلقاً. فالقرويون البالغ عددهم ألفاً تقريباً يضمون ثلاثين عضواً في الحزب، ومن جملتهم رئيس للحزب عُيِّن مباشرة من الحزب. والقرويون هم الذين انتخبوا رئيس القرية، وفي قرية تشيو تصادف أنه عضو في الحزب، ولكن ذلك ليس مطلباً في رئيس القرية. وفي أثناء اجتماعي في ساحة الدار، لاحظت رجلاً كان الآخرون ينظرون إليه لتقديم الإجابات، وعلمت بعد ذلك أنه كان رئيس الحزب. وكان من الواضح أن آراءه كانت تأخذ أسبقية على آراء رئيس القرية. وزيادة على ذلك، أشار المسنون إلى أن من بين كثيرين من القرويين الذين يتقدمون بطلبات للالتحاق بالحزب، فإن قسماً صغيراً جداً من النجباء الواعدين فقط هم الذين كانوا يقبلون في الحزب في كل عام.

وكنت قد وصلت إلى القرية في الفترة غير العادية هي فترة الاتفاق بين القرويين وبين مسؤولي الحزب. وكانت الحكومة المركزية قد أوقفت فجأة فرض الضريبة على القرية إيقافاً كاملاً، بعد تقارير عن قيام المسؤولين المحليين باستغلال القرويين وإثارة عدم الاستقرار. بل إن الحكومة المركزية بدلت سياستها في فرض الضرائب، وأحلت محلها سياسة إعادة دفع المال إلى القرية. كان رئيس القرية مسؤولاً عن توزيع إعادة دفع المال بين السكان. وكان تحسين البيوت، وأجهزة التلفاز الجديدة، والهواتف الخليوية من بين المنافع المشتقة من هذا الرزق الذي جاءهم من حيث لم يحتسبوا. وسألت هل أدى التوقف عن فرض الضرائب إلى أي أثر دائم؟ وكنت أفكر ربما أنه أعطى إشارة لقيام علاقات جديدة بين مسؤولي الحزب المحليين وبين القرويين. لا، كما قيل لي. كانت الآثار فقط في المستهلكات وفي السلع المادية البسيطة.

التقسيم الصيني من ماو والرأسمالية المنسقة من دينغ

لي ينينغ واحد من أشداء الحزب الشيوعي الصيني، وهو العميد المؤسس لمدرسة غيوانغهيوا للإدارة المحترمة جداً التابعة لجامعة بيجين، وهو رجل امتلك وجهة نظر رأت عن قرب التغييرات المبكرة في الصين الريفية. فحين أُطلِقت إصلاحات الصين في العام 1978، كان لي هو المؤتمن على أسرار مهندس الإصلاحات الرئيس، وهو دينغ هيسياوبنغ، وساعد لي على كتابة مسودة سلسلة من خطط السياسات التي حولت الصين في نهاية الأمر. وحين أُدخلت الحوافز الاقتصادية وأعيدت الحيوية للزراعة، ظهرت محاصيل الحصاد الجيد وصارت هي النموذج. وصارت القرى في الصين هي المصدر لنمو اقتصادي واسع الانتشار.

وكانت غايتي من التحدث إلى لي هي أن أفهم كيف اختلف منظر الصين بعد الإصلاح عن ظروف عصر ماو؟ ولماذا ركزت الإصلاحات جهودها في القطاع الريفي. تقابلنا في مكتبه في جامعة بيجين، وهي توصف لِيَ بأنها هارفارد الصين. وكان يجب علي أن أُرَافق بدليل يقودني عبر متاهة من المساعدين له قبل أن أصل أخيراً إلى مكتبه، وهو غرفة عظيمة مهيبة، تشبه الكهف تقريباً. وقف لي ليحييني بطريقة ودودة جداً. وهو رجل ممتلئ الجسم، ودخَّن طوال اجتماعنا، الذي تم باللغة المندرينية بأكلمه، وتُرجِم من أجلي باحترام من خريج تأهل حديثاً في الاقتصاد بدرجة الدكتوراه من ستانفورد. وأثر لي في نفسي طوال الاجتماع بوصفه رجلاً واسع المعرفة من طريق المطالعة وحسن الاطلاع على الأمور. وبدأ لي بإبداء ملاحظة بقوله: "كان الإنتاج في المناطق الحضرية تحت سيطرة الدولة. ومثل ذلك كانت حياة الناس. أما في المناطق الريفية فكان الإنتاج يخطط له، ولكن الحياة العادية كانت خارج نطاق سيطرة الدولة. وهكذا ففي المجاعة التي دامت ثلاثة أعوام مات 30 مليون نسمة، ومعظمهم في المناطق الريفية التي لم تسيطر فيها الدولة على حياتهم عادة، في حين أن الناس في المناطق الحضرية لم يموتوا من الجوع ولكن ربما من مشكلات تتصل بالتغذية".

الإشـارة المختصـرة مـن لي إلى 30 مليون نسمة جاعوا، حتى المـوت غطى الكثير من التاريـخ. فمجاعـة العـام 1958، التـي نسقها من غير قصـد ماو، كانـت ذروة عدد من الحـوادث والتوجيهـات. فمن الأيـام الأولى لوجود مـاو في السلطة، كانـت إحدى غاياته القيـام بالتصنيـع الحضري الممول بفائض اقتصادي تولده الصـين الريفية. ولكن لعمل ذلـك، علـى كل حال، كان عليه أن يقسـم الصين؛ لكي يكون مجمـوع مواطنيها الريفيين تحـت السيطـرة بشكل ناجح ومستثاريـن بشكل ناجح ليحققوا غايـات الحزب. في العام 1955 أدخل نظام الهوكو بموجب "مرسوم بخصوص تأسيس نظام دائم لتسجيل الهوكو (للأسرة)". وكانت الهوكو تعني رخصة إقامة صدرت على أساس مكان ولادة الشخص. وكان قصـد الحكومة من إصـدار بطاقات الهوكو أن تضمن أن يبقى الصينيون الريفيون في الصـين الريفيـة وأن كل الاستحقاقـات الممنوحـة لحامل الرخصة كانـت تعكس هذا التسجيـل العائلـي الريفي. وكانـت أهم مظاهر الحيـاة، بما فيها المكان الـذي عمل فيه الشخصـ، وذهب فيـه إلى المدرسة، واشترى فيه الطعام، كانـت تعتمد على المكان الذي كان قـد ولد فيه. وهكذا كان المقيمون الريفيون ممنوعين من الانتقال إلى المدن المفضلة. وحـين كانت المدن تحتاج إلى عمال، كانـت الحكومة تخفف من نظام الهوكو، وحين تكون المـدن قد صارت ممتلئة بالكثيرين جداً من العمـال، كانت الحكومة تقود الناس عائدين إلى القرى.

وفي إحـدى أعظـم المفارقـات التي تدعـو إلى التهكم من الثـورة الصينيـة أعاد ماو توزيـع الأرضـ لمن لا أراضـ لهم، وبعد ذلك مباشـرة طلب منهـم أن يعيدوها إلى ملكية جماعيـة. وحدثـت إعادة التجميع تدريجياً. وفي أثنـاء أول مرحلة من عملية تحويلها إلى ملكية جماعية تدريجياً، من العام 1949 إلى العام 1952، أنشأت الحكومة "أفرقاء العون المشـترك" في القرى[3]. وتكـوَّن كل فريق من هؤلاء الأفرقاء من اثنتـي عشرة أسرة أو ما يقـارب ذلك وكانـت هذه الأسر قد اجتمعت معاً طواعية ومن حـين إلى آخر وجمعت معاً عمالتهـا ورأس مالها. في هذه المرحلة بقيت الأسرة المفردة هي الوحدة الأساسية للملكية وللإنتـاج، مثلما كانت في صين مـا قبل ماو. وفي غضون السنتـين اللاحقتين، في المرحلة الثانيـة من التحول إلى الملكية الجماعية جاءت إلى الوجود "التعاونيات المنتجة للزراعية

الأولية". وكان يطلب من الأعضاء أن يجمعوا مواردهم، وكانوا يعطَون حرية محدودة في ألا يتعاونوا. ومع إزالة الحوافز الفردية، فشل الإنتاج في الوصول إلى المخرجات المتوقعة من الحكومة. في العام الأول من المرحلة الثالثة من التحول إلى الملكية الجماعية، حولت جميع المزارع الصغيرة إلى "تعاونيات منتجة زراعية متقدمة"[4] وخفضت الحكومة بالقوة أسعار الطعام لتزويد العمال الحضريين بالطعام الرخيص وللمحافظة على التكاليف منخفضة. ومن سوء الطالع أن الأسعار المنخفضة ثبطت أيضاً الاستثمارات الزراعية، فأدت بذلك إلى تصاعد التهديد بنقص الطعام.

وبرهن نظام الهوكو، أو رخصة الإقامة، أنه مفيد على نحو خاص في توزيع حصص موارد الطعام القليلة. وبعد شهرين فقط من إعلان نظام الهوكو، أصدر ماو توجيهاً عن "الإجراءات المؤقتة التي تحكم توزيع حصص الحبوب في المدن والبلدات". والأفراد المسجلون في كل أسرة كانوا مصنفين وفقاً لأفرقاء إقامتهم، ومدارسهم، ووحدات عملهم. وبعد أن تم تنفيذ التسجيل، أرسلت آلاف قوائم الأسماء وملايين بطاقات الهوكو، إلى الحكومات المحلية، وهي التي تحققت من صحة بطاقات الهوكو وأصدرت بطاقات التزويد بحصة الطعام والحبوب. كانت التفاصيل مذهلة لا تكاد تصدق[5]. فحتى مواقع إطعام الحيوانات، على سبيل المثال، كان قد تم تحديدها.

والحدود النهائية التي قسمت بين الصينيين الريفيين والحضريين كانت قد تأسست بموجب "معايير للتقسيم بين المناطق الحضرية والريفية"، وهو توجيه قسم الصين إلى ثلاثة "أصناف مكانية". وكانت هذه الأصناف هي: المناطق الحضرية، وتضم المدن والبلدات، والجيوب السكنية الحضرية الموجودة خارج المناطق الحضرية التي يعمل المقيمون فيها بشكل رئيس في الصناعة المملوكة من الدولة أو في منشآت البحوث، والقرى. وبحلول العام 1958 كان الصينيون الريفيون قد عزلوا عزلاً تاماً عن إخوانهم في المدن.

وفي جزء من خطة السنوات الخمس الثانية (1958–1963)، دعا ماو إلى تسريع عملية التصنيع. وأُمِرت المصانع المملوكة من الدولة بأن تزيد الإنتاج. واستثيرت المجتمعات الريفية لتنتج الفولاذ إنتاجاً كبيراً. وأصدرت المقاطعات والبلديات سندات إنشاء

واستأجرت عمالة كثيرة بالقدر الذي كان يلزم للوفاء بحصص بيجين. وفي خريف العام 1958 تفيد التقديرات بأن 38 مليون نسمة كانوا قد حشدوا ليغادروا قراهم. وغادروها، وأخذوا معهم أدواتهم وحيواناتهم. وبلغت الهجرة إلى المناطق الحضرية ذروتها. وبين العام 1957 والعام 1960 زاد سكان الصين الحضريون من 99 مليون نسمة إلى 130 مليون نسمة. وتم إهمال نظام الهوكو إهمالاً كاملاً.

هذه الحركة المصطنعة للعمالة فاقمت من نقص الطعام الذي سببته الملكية الجماعية. فعلى الرغم من موسم حصاد وافر على نحو غير عادي في العام 1958، تركت كميات ضخمة من المنتجات الزراعية لتتعفن في الحقول[6]. وفي الوقت نفسه احتاجت الدولة إلى إطعام قوة العمل المزدهرة لديها. وحين صارت علامات المجاعة ظاهرة، عملت الحكومة إلى الوراء در، وأمرت المصانع الحضرية أن تغلق أبوابها. وتعيد العمال الذين كانوا قد نقلوا إلى المدن قبل عام أو اثنين سابقين تقريباً، إلى القرى. وفي العام 1959 كانت الخطة تهدف إلى تخفيض قوة العمل لدى الدولة بعدد بلغ 10 ملايين تقريباً، وبذلك تخفض كمية الطعام والوقود اللازمين في المدن. وكانت الأسباب الأساسية مبنية على التعليل الحسابي ولكنها لم تُلقِ إلا انتباهاً قليلاً للحوافز، واستمر نقص الطعام. وأعيد خمسة ملايين عامل فقدوا أعمالهم إلى المناطق الريفية مع معرفة قليلة لما كانت تعنيه حالتهم الريفية لمستقبلهم. وفي المناطق الريفية منع المسؤولون الفلاحين من الفرار من جوع الطعام. وهكذا طبق بحزم نظام الهوكو مرة ثانية ليناسب ارتياح بيجين.

فشل حكام الصين في الاعتراف بالمجاعة وفي تأمين العون من الطعام الأجنبي واستمر ذلك طوال ثلاث سنوات، وأبعدت الحكومة كل وسائل الإنتاج الخاص للطعام (وفي بعض الأماكن أخذت أواني الطبخ نفسها)، وأجبرت الفلاحين على البقاء في القرى الجماعية السيئة الإدارة، واستمرت في تصدير الطعام إلى المقيمين الحضريين المحظوظين، وبفعلها هذا جعلت الحكومة الحالة السيئة أسوأ حالاً. وقد كتب الاقتصادي الحائز على جائزة نوبل، أمارتايا سن يقول: إن المجاعات تدور حول مجموعات اجتماعية مختلفة تمتلك وسائل مختلفة للوصول إلى الطعام بقدر ما تدور حول النقص العام في

الطعام. وقال: "العقوبات المباشرة للمجاعة تحملها مجموعة معينة من الناس والقرارات السياسية تتخذها مجموعة أخرى منهم. فالحكام لا يجوعون حتى الموت. ولكن حين تكون الحكومة مسؤولة أمام الناس المحليين فهي أيضاً تملك أسباباً جيدة لتفعل أفضل ما تستطيع للتخلص جذرياً من المجاعات. والديمقراطية، من خلال العمل السياسي الحكومي الانتخابي، تمرر ثمن المجاعات إلى الحكام كذلك"[7].

وكما شرح لِيَ السيد لي ينينغ، واجه دينغ وفريقه حين جاء إلى السلطة الواجب الضخم وهو نقض سياسات ماو، لأن الصين الريفية، مع نهاية محاولة ماو في إعادة الهندسة الاقتصادية والاجتماعية، كانت تجثم وقد دمرها الفقر. وقال السيد لي: "في العام 1978 كان لدينا خيارات عدة. أحدها أن نختار الخصخصة الشاملة، وكانت تعني إنهاء الاشتراكية. وهذا ما سيكون غير مقبول. فالجمهور العام لن يقبل هذا، وسوف يجيء بالفوضى وعدم الاستقرار الاجتماعي". وأشار السيد لي إلى أن أي إصلاح كان يجب عليه أن يمتلك نكهة اشتراكية واضحة لتجنب الفوضى الاجتماعية. وقال: "الخيار الذي اخترناه في نهاية المطاف كان هو الإصلاح التدريجي. واخترنا أن نبدأ هذا مع المناطق الريفية بإدخال نظام المسؤولية العائلية في العام 1978. ونظام المسؤولية العائلية لم يكن هو خصخصة الأرض، لأن ذلك كان سيصير فوضوياً. نظام المسؤولية العائلية كان يعني أن الأسواق المخصصة من أجل الإنتاج الزراعي سوف تتطور ببطء".

بموجب نظام المسؤولية العائلية بقيت المزرعة الجماعية هي مالك الأرض ووسائل الإنتاج الأخرى. ومع ذلك، فأعضاء المزرعة الجماعية كانوا يستطيعون أن يستأجروا من المزرعة الجماعية أقساماً من الأرض لمدة تصل إلى خمسين عاماً. وفي أثناء تلك المدة يدفع المستأجر الضرائب على الأرض للحكومة، ولكن لا يدفع أجرة للمزرعة الجماعية. وإضافة إلى ذلك كان يستطيع المستأجر أن يحتفظ بأي فائض إنتاج متولد من الأرض المستأجرة. وهكذا، استعاد نظام المسؤولية العائلية حوافز الأرض التي كانت مفتقدة تحت نظام المزرعة الجماعية، التي عرضت المنافع نفسها لجميع العمال، والمتقاعسين والشغيلة، وكانت النتيجة أن عملاً قليلاً جداً كان يعمل.

في العام 1978 انتهز الفلاحون الصينيون المفقّرون الفرصة لاستئجار الأرض الزراعية. وكانت المعارضة في الحد الأدنى بسبب منافع نظام المسؤولية العائلية التي صارت واضحة. ومن العام 1977 إلى العام 1984 زادت مخرجات الحبوب من 283 مليون طن إلى 407 ملايين طن، ونمت مخرجات الزيت من 4 ملايين طن إلى 12 مليون طن، والقطن من مليوني طن إلى 6 ملايين طن. وتكاثرت أسواق الطعام المزدهرة عبر كل الأرياف، وصار أحد الأعمال الرئيسة لنظام الهوكو، وهو توزيع حصص الطعام النادرة، غير ضروري، وألغيت قسائم توزيع حصص الطعام وصار الطعام متوافراً للجميع حتى لحملة بطاقات الهوكو الريفية. وكانت إحدى النتائج المباشرة للإصلاح الزراعي هي أن مدى الشراء والتوزيع الذي تديره الحكومة كان قد انخفض انخفاضاً كبيراً. وبحلول العام 1985 كان عدد المواد التي تسيطر عليها الدولة قد انخفض إلى 38 مادة، وشكل هذا العدد نسبة 30% من مستوى عدد المواد في العام 1980. وفي العام 1992 قررت بعض الحكومات المحلية أن تحرر سوق الحبوب المحلي تحريراً كاملاً. وكان الأثر الاقتصادي عميقاً. وأدى الازدهار الزراعي إلى رفع الدخول الريفية، منشئاً بذلك سوقاً ريفية ضخمة من أجل السلع الاستهلاكية التي أدت بدورها إلى "توليد خزان من الوفورات التي مولت الاستثمار في المشروعات الريفية"[8].

وبحسب ما يقول السيد لي "نجاح نظام المسؤولية العائلة حرر بدوره العمالة الزائدة، وظهرت مشروعات البلدة والقرية لتمتص هذه العمالة الزائدة. ولم تكن مشروعات البلدة والقرية شيئاً تم التخطيط له. كانت المشروعات تطوراً طبيعياً".

ومعظم مشروعات البلدة والقرية امتلكها، وأدارها ونظمها الكوادر المحليون الذين حفزتهم بشكل محض نصيحة الحكومة المركزية لرفع مجمل الناتج المحلي الخاص بهم. وزيادة على ذلك، لم يكن هناك أي فصل للسلطات. فالكوادر المحليون أداروا، وامتلكوا، ونظموا عدداً ضخماً من مشروعات البلدة والقرية. والشركات الأجنبية التي قامت بعمل مشروعات مشتركة مع مشروعات البلدة والقرية وجدت أن شريكها، في أوقات النزاع، كان أيضاً قاضياً فعالاً في النزاع. وبرغم هذه النقائص حملت مشروعات البلدة والقرية

الهجينة وزنها الاقتصادي، أي مارست التأثير. وفي ذروة مشروعات البلدة والقرية في منتصف التسعينيات من 1990، أنتجت مشروعات البلدة والقرية 30% من مجمل الناتج المحلي للصين، 44% من القيمة المضافة الإجمالية، وفقاً للتقديرات الرسمية لوزارة الزراعة. وزيادة على ذلك، فقد كانت مشروعات البلدة والقرية مسؤولة عن ربع عائد الضرائب في الصين، وعن ثلث الصادرات الإجمالية، و 28% من قوة العمل الريفية الإجمالية (مستخدمة 128 مليون عامل)[9].

تذكرت حديثي مع لي حين زرت مجموعة ويهيوا، وهي شركة خاصة في مقاطعة هينان التي تصنع رافعات صناعية ضخمة. موقعها بالقرب من قرية وانحدرت من مشروع بلدة وقرية، ومجموعة ويهيوا تسيطر عليها عائلة واحدة، برغم أن لديها ما يقارب مئة حامل حصص مهمين. وفي وقت زيارتي كانت الشركة تخبُر نمواً سريعاً متهوراً، وبمبيعات بلغت 70مليون دولار في السنة، وكانت الشركة رابحة. وأصر المالك على ألا أستخدم لفظة مشروع بلدة وقرية، قائلاً: إن هذا الاستخدام خطأ تاريخي في غير محله. ووضّح أن العائلة ملكت عقداً للإيجار لمدة خمسين عاماً على الأرض المملوكة من الدولة التي بني عليها المصنع ولكن الشركة فيما عدا ذلك ليس لها أي ارتباط بالدولة. "في هذه الأيام، نحن لدينا إما مشروعات مملوكة من الدولة، في السجائر والتبغ والكهرباء أو أننا نمتلك شركات مدنية. لا يوجد ذلك العدد الكبير من المشروعات التي استثمر فيها الأجانب، سواء من المشروعات المملوكة كلها لهم أو المشروعات المشتركة، في أجزاء من الصين أقل انفتاحاً من الساحل".

مجموعة ويهيوا شركة حسنة الإدارة. وكانت قد أعادت استثمار مرابحها من الاستثمار بشكل ثابت طوال العقد الماضي. وبإقدام الشركة على دفع أجور سخية حتى بالنسبة إلى ما يستطيع الخريجون الجامعيون أن يكسبوا في عاصمة هينان، جينغجو، بإقدامها على ذلك نجحت الشركة في اجتذاب الموهبة المؤهلة وفي أن تبقى مع ذلك منخفضة التكلفة. أرضيات المصنع والساحات التي تجمّع فيها الرافعات لم تظهر نظيفة نظافة كاملة مثل بعض المصانع الجيدة في الغرب، ولكن الأرضيات والساحات كانت منظمة تنظيماً حسناً. ولاحظت بعض المخزون الزائد الذي بدا مهملاً، وخمنت أن الأجور المنخفضة لدى

الشركـة تسمح لها بأن تتسامح مع بعض من عـدم الكفاءة هذه، وخصوصاً حين تتنافس مـع الشركات الغربية من خلال سـوق التصدير. وبوصفها منشأة صناعية حسنة الإدارة قادرة على العمل بشكل جيد في عالم المنافسة، تميز مجموعة ويهيوا نفسها عن أي مصنع هندي يقوم بشكل مشابه في موقع في منطقة ريفية. فمشكلات البنية التحتية تمنع تحقيق مثل هذا النجاح في الهند الريفية.

وكنـت مندهشاً أيضاً أن أجد النساء يشغلن الرافعـات التي تحمل مئات من الأطنان من المـواد. و15% تقريباً من الموظفين المهنيين العاملين في ويهيوا من النساء، ومعظمهن مديـرات أو مشغلات للرافعات. وهـذا التوظيف للنساء هو إلى حـد كبير نتيجة للانتباه الـذي وجهته الصين إلى التعليم الأولي على مر العقود الماضية. النساء الهنديات في بيئة بلـدة صغيرة مشابهة يملكن الوصول إلى تعليم أقل بكثير من التعليم في البلدة الصينية، إن وجـد أي تعليم في الأصل. وعلمـت أن ست سنوات من التعليم الإلزامي في قرى هينان تتبعهـا ثلاث أخـرى في بلدة مجاورة، هي أيضاً تعليم إلزامي. ملاحظة ماو التي لا تنسى وهـي "النساء يرفعن نصف السماء" مازالـت شعاراً شائعاً في الصين الريفية. في العام 2002، كانـت نسبة 91% من الشعب الصيني في سـن الخامسة عشرة فأكبر تستطيع أن تقرأ وتكتب، ونسبة 87% من الإناث و95% من الذكور من تلك الفئة العمرية كانوا يقرؤون ويكتبون. وفي المقابل، كان معدل القراءة والكتابة بين البالغين الهنود هو نسبة 60% فقط في العام 2002، ونسبة 48% فقط من الإناث و70% من الذكور يقرؤون ويكتبون[10].

وتابـع الأستاذ لي في سرده التاريخي. "إضافة إلى نظـام المسؤولية العائلية ومشروع البلـدة والقرية، كان الشيء المهم الذي فعلناه هـو إنشاء المناطق الاقتصادية الخاصة". وكانـت هـذه المناطق تدار بوصفها تجـارب. وكانت الفكرة هي إنشـاء مناطق اقتصادية صغـيرة نسبيـاً وإمطارها بالحوافز اللازمـة لاجتذاب الاستثمار الأجنبـي. وأرسل دينغ المسؤولـين ليزوروا مناطق التجارة الحرة ومناطـق تطوير الصادرات في كل أنحاء العالم وكـرر نسخـة منها على شاطـئ الصين الجنوبـي، مستفيـداً ومعولاً على المراكـز المالية التجارية الراسخة لهونج كونج، وماكاو، وتايوان.

وأعطى الأستاذ لي تفاصيل التغيرات الاقتصادية في عصر ما بعد ماو. فمشروعات البلدة والقرية، ونظام المسؤولية العائلية، والمناطق الاقتصادية الخاصة كانت انقطاعات مؤثرة عن الماضي. وكان ما يساويها في التأثير، على كل حال، التغيرات السياسية والإدارية الموازية التي تحدث في الأرياف.

وعلى سبيل المثال، القرية الجماعية الشعبية، وهي المركز العصبي لاقتصاد ماو الريفي، انهارت وحلت محلها حكومات البلدة والقرية، التي تولت المسؤولية عن إدارة السكان الريفيين. وكانت النتيجة المباشرة لهذه اللامركزية هي إرخاء قبضة بيجين على الاقتصادات المحلية. وقد كشف مسح تم على مستوى الأمة وأجرته اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني ومجلس الدولة في مطالع العام 1985، كشف عن أن الحزب لا يستطيع، بشكل متزايد، أن يجند أعضاء جدداً، وينظمهم، ويجمع اشتراكات العضوية، وينفذ الخطط السياسية المركزية، ويقدم تجديدات لكبار أعضاء الحزب[11].

نهضت الكوادر المحلية لملء الفراغ. ومن سوء الطالع، أن اللامركزية رافقها الفساد وسوء الإدارة المالية. ماليات القرى، التي كانت قد جمعت ووزعت محلياً، أسيئت معالجتها بشكل فاضح. وأظهرت الدراسات أن 70% تقريباً من القرى والبلدات فشلت في الإعلان عن الحسابات المحلية. ووقع الاختلاس في الأموال العامة للقرى فيما يقارب 68% من القرى التي شملها المسح، وشكلت الرشا من أنواع مختلفة ما يقارب 160% من الرواتب النظامية لأعضاء الكوادر الريفية[12].

ونتيجة لذلك وصلت الكوادر المحلية والفلاحون إلى صراع متزايد. فالكوادر فرضوا على نحو اعتباطي رسوماً متنوعة. وبحلول منتصف الثمانينيات، ومع تجاوز العبء النقدي على الفلاحين، بشكل ثابت مستمر، دخولَهم الصافية، صار السخط الكبير واضحاً، للجميع حتى للسلطات العليا. وفي العام 1985 أصدرت الدولة سلسلة من التوجيهات لكبح الضرائب والرسوم التي تستطيع الحكومات المحلية أن تجمعها، وحددت التوجيهات مجموع العبء المالي بما لا يزيد على 10% من دخل الفلاح. ومع ذلك، فهذه الإجراءات لم تطبق. وفاقت احتياطات حكومات البلدة والقرية إلى حد بعيد ما كانت

تلـك الحكومـات تستطيـع أن تجمعه بشـكل قانوني. وكانـت الحكومات المحليـة مازالت تقسـر الفلاحين على المساعدة للدفع لمشروعات مثـل المدارس الجديدة والبنية التحتية، ومازالـت تفرض عقوبات عليهم بسبب عـدم الامتثال للخطط السياسيـة مثل سياسات ضبط النسل، ومازالت تُفرط في فرض التكاليف عليهم من أجل الخدمات الروتينية[13].

وردت بيجين على هذه الفوضى الإدارية بدعم ما دعي لجان القرويين. وكان المقصود جماعيـاً من لجان القرى المؤلفة من ثلاثة أعضاء إلى خمسة أعضاء أن تصحح الثغرات الإداريـة لمجلـس القرية الموجود، الـذي لم يكن يستطيع الاجتماع يوميـاً بسبب أفق عمله الواسـع. على الورق كان هذا يعني أن القرويين هـم الذين امتلكوا الصوت في سلسلة من القضايا، مثل خطط التنمية الاقتصادية، واستخدام المصادر الجماعية (الأرض، والماء، والطاقة)، وضبط النسل. وعملياً استمر فرع الحزب في القرية في ممارسة سلطة كبيرة. وفي رد فعل على الاضطراب السائد بخصوص حقوق اتخاذ القرار، أعلن الحزب الشيوعي الصينـي "القانون العضوي للجان القرى" في العـام 1987 لجعل كوادر الحزب مسؤولة أمـام القرويـين ولجعل اللجـان منظمات ذاتية الحكـم مع الحق لهـا في تدقيق حسابات ماليـات القرية. وبحلول العام 1988 كان الحـزب الشيوعي الصيني قد بدأ عملية تنظيم انتخابـات علـى مستوى القريـة في كل أنحاء الصـين. في بعض القرى تم فعـلاً التنافس علـى الانتخابـات، ولكن الكوادر المحلية في أماكن أخرى قاومـت بشكل ناجح. ومن المثير للاهتمـام، أن بعض العلماء يشير إلى أن "الانتخابات أنجح ما تكون في النواحي والقرى التي اختارتها وزارة الشؤون المدنية لتقدم البيان العملي"[14].

وكان التناقض في الإصلاح الصيني هو أن دور الحكومة، مركزية أو محلية، قد توسع توسعاً مهماً في أثناء الانتقال إلى اقتصاد سوق "بخصائص صينية" كما يقول الصينيون. وفي العـام 1995 فقـط أضيف مليـون عضو موظف جديد إلى جـدول الرواتب في الدولة، وهـو رقم لا يشتمل علـى المجندين الجدد الذين يدفع لهم من خـلال العوائد المحلية[15]. البيروقراطيـة الموفدة من بيجين والكوادر المحلية يتنافسون على كل نواحي إدارة القرية. وعلـى الرغم من أن بيجين شجعـت الكوادر المحلية على متابعـة التنمية الاقتصادية، لم تكن بيجين قادرة دائماً على كبح أعمالهم التي اتسمت بالشطط والإفراط.

في ظلال شجرة تين البنغال

غوجارات ولاية الهند الغربية، التي اقتطعت من بومباي في العام 1960، تحدّها باكستان في شمالها الغربي وتحدها الولاية التي تميل إلى الجفاف والأفقر منها وهي راجستان إلى الشمال، غوجارات هي موطن يقطنه 41 مليون نسمة، وهي موضع حسد الكثيرين من الهند من الناحية الاقتصادية. فهي معروفة برجال أعمالها المستثمرين، وصناعييها، وهي معروفة بما هو أبرز من ذلك، بوصفها مكان ميلاد مهاتما غاندي.

وغوجارات أيضاً موطن منظمة للنساء تسمى سيوا، وهي الحروف الإنجليزية عن: (منظمة النساء للتوظيف الذاتي) ولكن هذا الاسم سيوا المشكل من الحروف الأولى للمنظمة هو أيضاً كلمة هندية تعني "خدمة". وتلاؤماً مع المثالية الغاندية، فإن مؤسِّسةَ منظمة النساء للتوظيف الذاتي، وهي سيدة الأعمال الاستثمارية الاجتماعية، إيلا بهات، تَرْأس اليوم قاعدةَ عضويةٍ تضم سبع مئة ألف امرأة، منهن من يقمن في غوجارات، وثلثاهن مقيمات في الأرياف.

في شهر أيلول/سبتمبر من العام 2005 رتبت أن أقابل منظمي سيوا، (منظمة النساء للتوظيف الذاتي)، في أحمد أباد، وهي عاصمة الولاية الاقتصادية (وعاصمتها السياسية سابقاً). وكانت أحمد أباد تملك سمعة بكونها مدينة آمنة يستطيع فيها المرء أن يمشي متنزهاً حتى الساعة 10مساء، وهو تصريح من الصعب الإدلاء به بخصوص أي مدينة هندية أخرى من الحجم المشابه. واستقبلتني سيدة شابة، تلبس ملابس بسيطة وجدية المظهر هي آمي شيلات، وهي منسقة المنظمة لشؤون التدريب والتعليم، استقبلتني في فندق عادي ولكنه نظيف. وكانت آمي بن قد تلطفت وعرضت أن تسافر معي إلى قرية مجاورة؛ لأقابل أعضاء في مجموعة منظمة سيوا. وطلبت مني مباشرة أن أناديها آمي بن. وكلمة بن تعني "الأخت" باللغة الهندية والغوجاراتية. وهما مجرد لغتين من أربع وعشرين لغة إقليمية في الهند، ولكنها أيضاً تشترك في حشد من الكلمات المشتركة. وداخل منظمة سيوا تتم مخاطبة كل امرأة باسمها الأول متبوعاً بكلمة "بن". والتعبير علامة على الأخوة والتضامن. واستخدام نعت بدل آخر اسم للشخص هو أيضاً مُسَوٍّ

اجتماعـي وهـو يجعل الطبقة، والموقـع، والخلفية الإقليمية للشخص خارجة عن المقام. وكان يرافـق الأخـت آمي السيد ديسـاي، وهو لابس قبعات متعددة. فهـو إلى جانب كونه مستشـاراً بـدوام كامل لمنظمة سيوا، كان يعلم المحاسبـة في مدرسة إدارة محلية كان قد أسسها مع آخرين.

وأخـيراً، كان هنـاك سائـق، يشار إليـه بكلمة "سائـق" في الهنـد، سيوريش بهاي، (وكلمة "بهاي" تعني "الأخ" بالهندي والغوجاراتي). ورافقنا الأخ سوريش في كل مكان، وتضمـن ذلك مطعماً بهيجاً على جانب الطريق يقدم مطبخـاً محلياً، وفيه تزين العديد من الصحون بكمية صغير للغاية من قصب السكر. تناول سوريش غداءه معنا، وهذا أثر منعش وغير عادي من المساواة، وهـو بشكل كامل منسجم مع شخصية منظمة سيوا. في معظـم الهند الحضرية، التي يعمـل فيها تسلسل هرمي مؤثر بوصفـه حاجزاً بين الذين يملكـون اقتصادياً والذيـن لا يملكون، كان السائق في مثل هـذه الحالة سيختفي برشاقة من المشهد من المطعم، وسيظهر ثانية بشكل معجز حين يدعى بهاتفه الجوال الخليوي.

مسافة السواقة من أحمد أباد إلى القرية التي كنت سأقابل فيها عضوات أخريات من منظمـة سيوا كانت في بعض الوجوه مسافة مشابهة لتلك التـي سقتها في هينان، ولكنها مـن وجـوه أخرى كانت مختلفة نوعـاً ما. فعلى الرغم من أن هينـان هي واحدة من أفقر المقاطعـات الصينيـة، بدا ريفها أكـثر ازدهاراً من ريف غوجارات، وهـي ولاية من أغنى الولايـات الهنديـة. والطريـق إلى أحمد أباد، مثل معظـم الطرق في الهنـد، كان طريقاً كثير الحفـر والمطبات، بحركة مرور بطيئـة تقطع انسيابها سيـارات الشحن المشاكسة، والحيوانـات من كل نـوع، والأشخاص المعزون الذين يمشـون مجهدين مشياً غير مستقر على طول الطريق.

أسسـت منظمـة سيوا في العام 1972 بوصفها فرعاً من اتحـاد عمال الغزل والنسيج، وهـو واحد من أقدم الاتحادات المهنية في الهند وأضخمها. وكانت سيوا تقصد في الأصل أن تساعـد النسـاء في القطاع غير الرسمي، وخصوصاً زوجـات وبنات عمال المعمل، وفي

غضون سنوات عدة كانت سيوا تعقد فصولاً في الخياطة، وحياكة الصنَّارة، والتطريز، والغزل، وتركيب الطباعة، والنسخ، والاختزال. في العام 1977 منحت بهات جائزة رامون ماغسيسي، ولعلها أشهر وسام في العالم يمنح للخدمة الاجتماعية، وهو ما جلب الدعاية والاعتراف الدوليين لمنظمة سيوا. وحتى هذا اليوم يستخدم عمال منظمة سيوا بلاغة خطاب اتحاد العمال في المحادثة اليومية، على الرغم من أن هؤلاء العمال لا يناسبون الصورة الذهنية التي أتصورهم فيها، وهي صورة مجموعةٍ مُجَابَهةٍ من العمال يشغبون ضد رجل أعمال مستثمر صاحب صناعة. سوف تستمر سيوا في كونها اتحاد عمال، ولكن ارتباطها مع رابطة عمال الغزل والنسيج قد انفكت. ففي شكلها الحالي تتبع سيوا إيديولوجية غاندية على نحو حازم، واللاعنف هو صميم مبدئها والقلب منه.

واقترحت علي الأخت آمي أن أفكر في سيوا مثلما أفكر في شجرة التين البنغالي. فالهنود يعلقون قيمة ضخمة من الرمزية على شجرة التين البنغالي، وهي شجرة البلد القومية. فبالنسبة إلى الهندوس تمثل جذور شجرة التين براهما، خالق كل الجنس البشري، واللحاء يمثل فيشنو الحافظ، والأغصان تمثل شيفا المدمر. وبالنسبة إلى البوذيين شجرة تين البنغال هي الشجرة التي حقق تحتها غوتام بوذا الاستنارة. ويقول بعض الهنود إن الحليب السميك الذي يخرج من أوراق شجرة التين البنغالي حَفِظ الجنس البشري قبل اكتشاف الحبوب والمنتجات الأخرى، وأعداد ضخمة من النساء الهنديات يحترمن شجرة التين البنغالي رمزاً للخصوبة.

وشرحت الأخت آمي علاقة شجرة التين البنغالي مع منظمة سيوا. "الأوراق هي عضوات سيوا اللواتي بلغ عددهن 700,000 عضوة، والجذع هو المنظمة الأم لسيوا. والأغصان العديدة من الشجرة تمثل المنظمات الشقيقات لمنظمة سيوا، التي تنمو بصفتها منظمات لأعضاء عمال لها حكم ذاتي، وهي تدعم الشجرة، الأعضاء والجذع". وما يميز سيوا عن أي تسلسل هرمي تقليدي هو صورة سيوا عن ذاتها بوصفها منظمة ترسل أعضاؤُها جذوراً إلى الأرض، فتساعد الأغصان لتصير سميكة بسماكة جذوع الشجرة نفسها. هذه الشجرات المترابطة فيما بينها تشكل بعدئذ شبكة مرنة. وضربت الأخت آمي مثلاً كيف هبت مجموعة من قرية معينة تلقائياً إلى معاونة مجموعة أخرى

في قريــة ضربها الفيضان. إن نظامــاً أخلاقياً حقيقياً من القيادة الجماعية بزغ من روح المساواة التي كنت قد لاحظتها[16].

بعد ساعــة من سياقة السيارة وصلنا مقصدنا الذي توجهنــا إليه، وهو مشتل زراعي أنشأتــه مجموعة من سيوا مكونة من خمســ عشرة امرأة في ديفبورا في منطقة خيدا من غوجــارات. ومعظم النساء جئن من عائلات عمال زراعيين بلا أرض. وهكذا كان الدخل الإضــافي الناتج عن مشــروع المشتل الزراعي ثميناً بالنسبة إليهــن. وكانت النسوة ينمين شتلات صغيرة من البذور للزهــور، وللفواكه، وللأعشاب، وللخضراوات مستخدمات كل أنش متاح من قطعة أرض من أكر واحد (فدان).

قبــل خمس سنوات كان هــؤلاء النسوة قد بدأن بالضغط على الحكومة المنتخة المحلية للقرية، لتسمح لهن باستخدام الأرض. في ذلك الوقت كان ملاك الأراضي يزرعون التبغ، وهــو محصول نقد حاضر مطلوب طلباً كثيفــاً، يزرعونه في ملكيتهم من الأرض التي كان يعمل فيها المزارعون المستأجِرون لها. وشكت النسوة من أن ملاك الأراضي كانوا يخدعون الفلاحــين، ويرتكبــون الاحتيــال. ووقعــت العائلات في الديــون عائلة بعد عائلــة. وكانت الأميــة وفقدان مهارات مسك الدفاتر للمحاسبة هــي الملومة، إلى جانب الترهيب المعتاد للفلاحــين. وبعد سنــوات من الاضطراب ومــن الأعذار الوفيرة، التــي شملت في جملتها الزعــم بأن الأرض مسكونة من الأشباح، منحت الحكومة المنتخبة للقرية استخدام فدان مــن أرضــ القرية للنساء. وختمت أشدهــن صخباً، وهي امــرأة في الأربعين من عمرها، غامقة لون الجلد، نحيلة على نحو مؤلم، هذا الجزء من القصة بجملة لامت بها الحكومة المنتخبــة للقريــة وقالت: "بأشبــاح أو من دون أشبــاح. نحن نأخذ هــذه الأرض، وإذا لم نستطع أن نكسب أي شيء منها، فنحن سنتحول إلى أشباح وننتابها بأنفسنا".

عنــد أحد أطــراف المشتل الزراعي صادفت مضخة ماء يدوية. كانت في العادة تتحول إلى مضخــة معطلة، وكان التصليح محنة كبيرة. بعد ذلــك نظمت مجموعة من النساء، امــرأة مــن كل قرية من قرى عدة، مجموعــةً جديدة للعون الذاتــي، مستلهمة عملها من سيــوا، وذلك ما أثار القلق والنقاش بالنسبــة إلى رخصة صيانة مضخات الماء للمنطقة، وقــد سخر الرجــال في القرية من هذا الجهد، معتقدين أن صيانة الآلات الثقيلة والمعقدة

يجب أن تكون محمية لهم. كانت شكوكهم بلا مبرر. واستطاع النسوة أن يحافظن على المضخة تُهَمْهِم باستمرار وعلى نحو سلس.

الحل لمشكلة المضخة مثَّل نموذجاً لموقف يعبر عن عزيمة تقول: نستطيع أن نعمل، وهو الموقف الذي أبدته مجموعة من النساء المحرومات تاريخياً. لقد قمن بالتنظيم من خلال منظمة سيوا من أجل استمداد المنفعة من عدد آخر أقل من النسوة اللواتي حضرن دورات في إدارة المشتل الزراعي ودورات في علم النبات في المدينة؛ ليكتسبن الخبرة والمعرفة اللازمتين. ومن خلال منظمة سيوا وجدن الاتصالات في المدينة ليبعن شتلاتهن مقابل ربح كبير (مقارنة مع ما كن سيكسبن بوضعهن مستأجرات للأرض من ملاك الأرض). وعملت النسوة بقوة في أرباحهن في مشروعات عديدة لتحسين الذات وهي مشروعات أدت في نهاية المطاف إلى مساعدة القرية كلها.

بعد جولة في المشتل الزراعي جلست متربعاً تحت شجرة من تين البنغال على أرض مصنوعة من الوسخ المشوي مع أربعين امرأة تقريباً راوحت أعمارهن بين مطالع العشرين وأواخر الستين، وكان بعضهن قد سافرن مسافة تصل إلى خمسين ميلاً ليتحدثن معي. وبدأ الاجتماع بشكل مفاجئ، ففي اللحظة التي جلست فيها على الأرض أنا والأخت آمي، دخل النسوة بقوة في صلاة هندية تُغنَّى مع لحن شائع في جنوب إفريقية، وتقول كلاماتها: "نحن سنتغلب على مصاعبنا، وسنكون ناجحات في يوم ما". وقد كان ملهماً أن أشهد هذا التعبير عن التضامن. هؤلاء النسوة تغلبن على أمور كبيرة ليصغن الوقائع الوجودية التي منحتهن احترام الذات. لقد تغلبن على الانحياز للجنس، وهو انحياز مرهق شائع في الهند الريفية، وتعلمن أن يكَمِّلن دخول أزواجهن في الوقت الذي يربين أطفالهن، ويعملن ساعات تقصم الظهر في الحقول. كانت منظمة سيوا هي الحفاز بشكل واضح خلف تحول اجتماعي كبير.

تحت الشجرة سبورة ضخمة كتبت عليها الأبجدية الغوجاراتية. وكانت كل امرأة تحمل دفاتر ملاحظات كتَبن عليها بشكل أنيق الحروف وأسماءهن. هذه هي أدوات "جامعة الحياة". ووصفت الأخت آمي أصول الجامعة في رغبة النساء الريفيات، التي جعلوها واضحة على نحو كامل لنظيراتهن المتعلمات في سيوا، وهذه الرغبة هي أن يتعلمن

العمليـات لا التجريـدات النظرية. ومنهـج جامعة الحياة الذي نشـأ في رد فعل على هذه الحاجة مقسم إلى أربعة أنواع: الاقتصاد والبيئة والأمن الاجتماعي والسياق الثقافي. في فصـول الاقتصاد يتعلم النساء عن دورهن، بوصفهن منتجات ومستهلكات معاً، في نظام اقتصاد القرية. ويتضمن تعليـم الأمن الاجتماعي التأمين طويل المدى، وصحة الأطفال، والمدخـرات الشخصيـة. ونظراً إلى أن هـذه المجموعة لم يكن عليها أبـداً أن تعالج المال وعاشـت حياة سد الرمـق للبقاء، فقد كانت فكرة المدخرات صعبة الفهم بالنسبة إليهن. بعضهـن كرسـن أنفسهـن لتعليم الأخريـات كيف يوفـرن، تعليم اللفظـة الهندية لفكرة المدخـرات. كانت إحدى الأفكار أن تجعل السيدات يضعن جانباً 25 بيزة يومياً، وهي ربع روبيـة، أو 0,006 من الـدولار. هذا المبلغ الضئيل كان أكثر قابليـة للمعالجة والتدبير من توفـير 10 روبيـات في الشهر. توفير حبة من الحبوب يومياً كان أسهل للربط به من توفير المـال النقـدي. وتدخلات صغيرة من مثل ذلك تسير طريقاً طويـلاً نحو مساعدة النساء الريفيـات لتحسين حياتهـن. الأخت ريتا، وهي عضوة في سيوا مـن قرية ثالا في مقاطعة سيريندراناغـار، أخبرتني: "نحن عاملات بالملح، ونحن نعمـل في أحواض الملح. ولذلك فنحـن عاجزات عن الذهاب إلى المدرسة. وبعد أن التحقنا بفصول جامعة الحياة تعلمنا الكثير من الأشياء الجديدة. لقد تعلمنا الآن أن نقرأ وأن نكتب. ونحن نستطيع أن نذهب إلى فصـول جامعـة الحياة حتى ونحـن مقيمـات في الصحراء. هناك عدد مـن النساء الأخريات مثلي. فأنا أستطيع الآن أن أقرأ الحروف والصحف"[17].

ربما كانت الكلمة التي سمعتها تتكرر كثيراً في أثناء ذلك اليوم هي كلمة "الشجاعة". وأخـبرني النساء أنهن يدركـن أن التغيير صعب، وأنه سوف يقابـل بالمعارضة من البيئة الاجتماعيـة التي يعملـن فيها، ولكن النجاح قـد علمهن قيمة الإصرار علـى العمل. وقد يكون لنجاحهن تأثير في الأجيال كذلك. فالأخت آمي أخبرتني أنها لا تستطيع التفكير في امـرأة واحدة كانت قد حضرت إلى جامعة الحياة وهي مازالت ترسل أطفالها إلى العمل في حقـول التبغ بدلاً مـن المدرسة الأساسية على الأقل. وكان ذلك توضيحاً بسيطاً لكشف معـروف جيداً في العلوم الاجتماعية وهو أن منافع تعليم النساء تفيض وتؤثر على آخرين في بيئتهن[18].

كانت امرأة تجلس بجانبي تحمل حقيبة صغيرة من الأدوية تحتوي على إسبرين، وعلاجات لمعالجة أعراض الرشح، وعلاجات تخفيف آلام المعدة، وأقراص لتعقيم ماء الشرب. وبوصفها "طبيبة متنقلة"، فهي تصرف هذه الأدوية للنساء في قرى عديدة. وحين سألت هل تلقيت أي تدريب؟ أخبرتني بأنها اتصلت بمنظمة سيوا في أي وقت احتاجت فيه إلى النصيحة، وحينئذ تقوم سيوا بترتيب التدريب الأساسي الضروري. بل إن هذه الرعاية الطبية الأساسية هي رعاية أكبر بكثير مما كان موجوداً من قبل. ووصفت النساء ترددهن في الاعتراف بشعورهن بالمرض، حتى للرجال في عائلاتهن، وتشعر النساء بارتياح أكبر في الحصول على العلاجات البسيطة من الدكتورة المتنقلة. ويقوم نوع آخر من الطبيبات المتنقلات بفحص الظروف الصحية للأدوات المنزلية الأساسية في حفنة من البيوت للتحقق من أنها ليست أماكن تحتوي على تلوث معدٍ، وتقدم مطهراً بسيطاً حين تدعو الحاجة إلى ذلك. وقد أثبتت سيوا بالوثائق أن هؤلاء الطبيبات المتنقلات مؤثرات تأثيراً ملحوظاً في إيقاف انتشار الملاريا في أثناء الفيضانات.

بقيام سيوا بتعليم النساء أن يصلحن مضخة ماء القرية، ساعدت سيوا عائلات كاملة للهروب من الماء الملوث. وبقيام سيوا بتعليم النساء أن يقرأن وأن يكتبن، ساعدت سيوا النساء على تجنب الاستغلال من الوثائق القانونية القائمة على الاحتيال. وبإظهار سيوا للنساء قيمة توفير أقل من سنت واحد في اليوم، ساعدت سيوا النساء على أن يكتسبن بعض الأمن المالي. هذه الدروس العملية تستطيع أن تدفع النساء خارج الفقر والظلام وإلى الأمن واحترام الذات في قراهن. وهكذا، فإن سيوا تساعد على كسر الدورة التي تكون فيها المرأة مستغلَّة من الرجال المهيمنين، وخصوصاً من المرابين، وملاكي الأراضي، وتغرس سيوا في النساء قيمة تعليم أطفالهن.

تصنيف الهنود

في حين كان ماو مشغولاً في تقوية الانقسام الريفي الحضري في الصين بسياسات مثل الهوكو، أي رخصة الإقامة، واجه الآباء المؤسسون للهند واجبين هائلين في العام 1947: كان الأول هو إنشاء خطة اقتصادية يمكن لها أن تنتشل ما يقارب نصف بليون

مـن الفلاحين من الفقر الطاحن. وكان الثاني هو إنشاء إطار سياسي يمكن له أن يعكس مجتمع الهند المتنوع.

وعلـى خلاف جداول الأعمال الاقتصادية غير المنـازَع فيها التي عملها ماو، كان على الهنـد أن تنجز هذين الواجبين في ديمقراطية كانت تتطلب الالتزام بالعمليات البرلمانية والحفـاظ على الحريـات الخاصة. ثلاثة صناديد مـن الأمة الناهضـة حديثاً تصادموا صداماً متكرراً في هذه المسائل، وهم: نهرو، أول رئيس مجلس وزراء في الهند، وبهيم راو آمبيدكار، واضع إطار الدستور الهندي، وغاندي أبو الأمة.

في مسألـة الاقتصاد وخطط السياسة الصناعية حمل غانـدي ونهرو آراء متعارضة. كان نهـرو يفضل النمـوذج السوفيتي مـن التخطيط المركـزي وتشديداً علـى التصنيع. وغانـدي الذي قال قـولاً مشهوراً هو: "الهند تعيش في قراهـا"، دعا إلى التنمية الريفية وإلى التنميـة الصناعيـة على نطاق صغير، مع التشديد على قـرى الأمة التي بلغ عددها نصـف مليـون قريـة. ودفع مـن أجل حكم علـى مستوى القريـة، متصـوراً ("جمهورية القرية") بوصفها صرح الديمقراطية الهندية والتنمية الهندية.

آمبيـدكار لم يكـن لديه أي إيمان بمفهوم جمهورية القرية؛ لأنه كان يعتقد أن هيئات الحكـم المستندة إلى القرية سوف تقع فريسة لنظام طبقـات الهند القديم، وهو النظام الـذي أدام التمييز المنهجي الاجتماعـي والاقتصادي طوال قرون. وأمبيدكار نفسه الذي ينحـدر مـن طبقة محرومـين، كان لديه أسبـاب للارتياب. نظام الطبقـات، المتجذر في النصوص الهندوسيـة المقدسـة التي تعود في تاريخهـا إلى 2,500 سنـة، وصف تسلسلاً هرميـاً مـن أربعـة مستويات صارمـة للمجتمع الهنـدي. في القمـة كان البراهمة، وهم: الكهنة، والمعلمون، والفلاسفة الذين كان دورهم الأول هو أن يكونوا مؤتمنين على التعليم والديـن، وهي مناطـق محدودة حرسوها بعنف. وأخفض بمرتبـة واحدة كان كشاتريا أو طبقـة المحاربين، وهي التي ضمـت الأمراء، والملوك، والآخريـن المعنيين بالدرجة الأولى بالحكـم وبالدفاع. ويلي ذلـك فيزياس وهم التجـار، المسؤولون عن الزراعـة والتجارة. وفي القـاع كان السودراس، وهم الذيـن خدموا الطبقات الثلاث الأعلـى منهم بأن تولوا

الأعمال الخسيسة. وهذه الأصناف الأربعة وصفت تقليدياً نظام الطبقات. ومع ذلك، ففي الواقع يضم كل صنف آلافاً من الطوائف. وعلى سبيل المثال يمكن تقسيم فيزياس إلى أقسام فرعية من المصرفيين، والتجار، والسماسرة، وتجار الجملة. ويمكن تحديد الطائفة باللغة، أو بالمهنة، أو الإله الذي اختارته الطائفة للعبادة. وخارج التسلسل الهرمي للأصناف الأربعة كان الداليت، أو المنبوذون، وهم مجموعة ضمت عمال الجلود، والمزارعين الفقراء، والعمال الذي لا أرض لهم.

ربما جاء أبرز تحدٍّ لنظام الطبقات من البوذية، التي اعترفت أن الطبقة لا اعتبار لها؛ لأن موقع الشخص في الحياة اعتمد على أفعاله لا على مولده. وعلى الرغم من حقيقة أن البوذية كانت ديانة سائدة في الهند بين القرنين الرابع والسادس، بقي نظام الطبقة حياً. وفي الحقيقة، أن نظام الطبقة يتغلغل في البوذية. ففي وقت قريب في التسعينيات من 1990، وفي موضوع يتصل بالزواج في صحيفة يومية دعا المقال إلى حلف مع "فتاة (من الماهار) بوذية". ومن المثير للمفارقة والتهكم، أن الماهار، وهم طبقة فرعية قد وصلت إلى أن تقوي هوية الفتاة البوذية*.

والإصلاحيون داخل الإدارة الاستعمارية البريطانية حاولوا أيضاً أن يغيروا التسلسل الهرمي الاجتماعي عن طريق تنفيذ سياسات عمل إيجابي في عشية الاستقلال في العام 1947. ومع ذلك، استمرت القرية التقليدية الهندية تدور حول نظام الطبقات الوراثي. وفي هذا السياق انتقد آمبيدكار رؤية غاندي عن جمهورية القرية. وفي الاجتماع التأسيسي في 4 من شهر تشرين الثاني/نوفمبر 1948، قال آمبيدكار: "جمهوريات القرى هذه كانت هي التدمير للهند. ولذلك فأنا مندهش من أن أولئك الذي يستنكرون المناطقية والطوائفية يتقدمون بوصفهم حماة للقرية. ما القرية؟ ليست سوى بالوعة للمحلية، ووكر للجهل، وضيق للعقل، والطوائفية"[19].

وكان على رئيس الوزراء نهرو أن يصالح هذه الحقائق الواقعة من الهند الريفية مع رؤيته عن الهند ذات السيادة والاشتراكية والديمقراطية. كيف يستطيع مجتمع

* كان الماهار من المنبوذين، فاعتنقوا البوذية للتخلص، ووصل بعضهم إلى مواقع عالية في الحياة العامة (المترجم).

اشتراكي جوهره الأساسي هو المساواة، أن يميز إيجابياً أو سلبياً بالاستناد إلى مفهوم قديم عن الطبقة؟ ما الدور الذي كانت ستؤديه الطبقة في الهند الديمقراطية الحديثة؟ ماذا ستكون العواقب للعمل التشريعي الإيجابي في مجتمع نَخَرته الطبقية بعمق؟ وربما كان أهم من كل ما تقدم، هل التمثيل السياسي المستند إلى الطبقة سيترجم إلى منافع للأقسام المهمشة من المجتمع؟

وفي نهاية الأمر توصلت الأطراف المتعارضة إلى عقد سلسلة من تسويات الحلول الوسط بخصوص الاحتواء السياسي. فدستور الهند المستقلة جعل المنبوذيَّة غير شرعية. ولكن آمبيدكار، وهو الكاتب الرئيس للدستور، اعتنى بالموضوع بأن فُرِضت حصص في البرلمان الهندي وفي التوظيف في قطاع الدولة. وحكومات القرى المنتخبة، وهي الآليات التي دعا إليها غاندي على مستوى القرية، من أجل الحكم الذاتي، وكان آمبيدكار قد هاجمها، وجدت لها مكاناً فيما يدعى المبادئ الموجهة للدستور الهندي. وهذه المبادئ مجرد خطوط هادية فقط وليست ملزمة قانونياً. وحاولت كل حكومة ولاية أن تضمن مشاركة الشعب في الحكم عن طريق سن قوانين تدعم حكم آليات مستوى القرية للحكومة الذاتية، (الحكم بحكومة القرية المنتخبة). ومن سوء الطالع أن الجهود على مستوى الولاية لم ينتج عنها سوى ظهور مجموعات تنتحل لنفسها ادعاءات لا تصح، ومستندة إلى الطبقات تشكل هيكل حكم موازٍ حرَم الطبقات الدنيا من أي أمل في المشاركة فيه.

ومثلما فعل ماو، أسس نهرو خطة سياسية للتصنيع ركزت جهودها في المناطق الحضرية وفي التخطيط المركزي. وأُهملت الزراعة، وهي وسيلة العيش لمعظم السكان الريفيين. وكما حدث في الصين، تضافر الإهمال مع نمو السكان لكشف نقائص خطة الهند الاقتصادية. ففي أواسط الستينيات من 1960 وصلت الهند على نحو خطير إلى قريب من المجاعة. وبدا أن التهديد الملتوسي، حين يتجاوز نمو السكان إنتاج الطعام، إمكانية حقيقية في العديد من القرى التي تواجه نقص الطعام.

المحاولات المسعورة من الحكومة بشأن الكفاية الذاتية من الطعام وصلت ذروتها في الثورة الخضراء. فمن العام 1967 إلى العام 1978 أدى الاستخدام الواسع الانتشار

للسلالات العالية الإنتاج من القمح والرز، إلى جانب ريّ أفضل وتوسيع مناطق الزراعة، في النتيجة إلى تحسينات ضخمة للإنتاجية الزراعية[20]. من الناحية الاقتصادية كانت الثورة الخضراء نجاحاً. فالولايات الشمالية الهندية في البنجاب وهاريانا على وجه الخصوص استفادت، مع ارتفاع الدخول إلى جانب ارتفاع الإنتاجية.

كان أهم اتجاه سياسي في هذه الفترة هو صعود الأحزاب السياسية المستندة إلى الطبقة، وخصوصاً في الهند الشمالية. وكان الأمر وكأن أسوأ أحلام نهرو قد صارت حقيقة. فالطبقة، بدل أن تكون لا اعتبار لها في الديمقراطية الاشتراكية في الهند الحديثة، كانت تتحول إلى الخاصية المحدِّدة لكيان الهند السياسي. وفيما كانت ربما أكبر مفارقة تدعو للتهكم على تراث نهرو، هي أن ابنته نفسها صارت السيد في "سياسة بنك الناخبين"، وهو تعبير استخدم لوصف ظاهرة قيام أفراد من الطبقة نفسها بالتصويت كتلة واحدة لواحد من المرشحين أو لحزب واحد.

وكما شرح ذلك لي حديثاً أحد الوزراء فقال: "كل شخص يسعى خلف مصلحة خاصة. وفي مثل هذه البيئة فأنت على أفضل الأحوال تفي باحتياجات، لِنَقُلْ، 10%، جزء هامشي في الطرف. وإذا كنت تستطيع الوفاء بحاجات هذه النسبة من 10% على نحو جيد، فذلك سيكون كافياً ليجعلك تُنتَخب، وهكذا فأنت لا تخدم كتلة الشعب أبداً". هذا التهميش لكيان السياسي يتفاقم بالمصالح الخاصة المستندة إلى الطبقة التي تطالب بحصصها الخاصة وتحفظاتها، وقد صيغت على النحو الآتي من واحد من الأحزاب:

"سوف نأخذ منصبَي رئيس الوزراء والوزير الرئيس في حكومة الولاية من خلال التصويت، وسوف نأخذ من خلال التحفظات منصبَي مدير الشرطة والموظف المسؤول عن حكومة المقاطعة في الولاية"[21].

ولاية أوتار براديش الشمالية، التي كانت وطناً لنهرو، والدائرة الانتخابية لإنديرا غاندي، مثَّلت بلدة أميثي، الاتجاه الصاعد. ففي العام 1971 دعت إنديرا غاندي إلى انتخابات قومية مفاجئة. وخاضت المعركة على برنامج شعبي، وكان شعارها: "تخلصوا من الفقر"، وقد سُمع في كل أنحاء الدولة. وفي أثناء حملتها الانتخابية خاطبت أفقر الهنود

وأكثرهـم تهميشاً. وهكذا صارت أخفض الطبقات المدرجة في الجدول، والنساء المسلمات، والداليـت هم بنوك التصويـت الجماعي لإنديرا غاندي. وقد كسبـت السيدة غاندي فوزاً كاسحاً في كل البلاد في ذلك العام. السياسة الحكومية الطبقية أعطت عطاء جميلاً.

وبحلـول العام 1980، أوتار براديش وبيهار، وهما ولايتان شماليتان مكتظتان بالسكان أرسلتـا أعداداً ضخمة مـن الأعضاء إلى مجلس الشعب (لوك سابهـا)، كانتا قد صارتا أرضـ المعركة للسياسيين المتوددين للطبقـات. كل سياسي سأل: من الذي سيحصل على الصوت المُسْلِم؟ من الذي سيربح صوت الداليت؟ وماذا عن خلفية الطبقات الأخرى؟ بل إلى اليـوم يُسأَل أي شخص يستريح في موقف شاحنات على جانب الطريق أو أي شخص يسافـر بالقطـار من خلال أجزاء ريفية من الهند الشماليـة، يسأل: "ما طبقتك؟" بدلاً من "ما اسمك؟".

في العـام 2004، في أثناء الفترة الثانية لحزب بهاراتيا جاناتا، كشفت الحكومة حملة إعلانيـة تلفازية جديدة تصور الشعار الذي رفعه الحزب الحاكم وهو "الهند المشرقة". وكان اقتصاد الهند قد نما بنسبة تقارب 7% طوال السنوات الست الأخيرة، وأراد حزب بهاراتيـا جاناتا أن يوضح نجاحه. وحين صوت الهنود في شهر آيار/مايو من ذلك العام، علـى كل حال، كانـت النتائج باعثة على الصدمـة. وتكبَّد حزب بهاراتيـا جاناتا خسارة انتخابيـة ضخمة. وما إن أغلقت صناديق الاقتراع، حتى بـدأ العلماء السياسيون بتحليل السبـب لهذا الانقلاب الظاهر رأساً على عقـب. وكان الاستنتاج النهائي هو أن كل الهند الريفية كانت قد تحررت من الوهم.

وعلـى الرغم مـن أن الهند كانت مشرقـة بالنسبة إلى الطبقات العليـا والوسطى في المناطـق الحضرية ومناطق الضواحـي، فقد كان هناك أزمة زراعيـة ريفية تختمر. وفي الصيف من العام 2002 لم تهطل الأمطار. واستمرار وجود نسبة 70% من السكان تكسب مـا يكفـي من معيشتهـا من الأرض، تمخض عـن وقوع كارثة. ولكن الجفـاف لم يكن هو الشـيء الوحيد الذي يصيب الزراعة الهندية بالكارثـة. فسنوات الإهمال للزراعة زادت المشـكلات وضخمتها. وحتى بعد الإصلاحات، كان تكوين رأس المال في القطاع قد انحدر

بوصفه نسبة مئوية من رأس المال الإجمالي المحلي، انحدر من 6,8 % في العامين 1993-1994 إلى 5,5% في العامين 1998-1999. ولكن، ربما كان أهم من ذلك، أن الاستثمار العام قد انحدر.

وكانت حصة الأنشطة الزراعية في مجمل الإنفاق في كل الخطط الخمسية السنوات كانت قد انخفضت من 6,1 % في الخطة الخمسية السادسة إلى 4,4 % في الخطة الخمسية التاسعة. وزيادة على ما تقدم، تلقى الري والسيطرة على الفيضان 6,5 % فقط طوال فترات الخطة الحديثة مقارنة بنسبة 10% في الخطط السابقة[22]. ونتيجة لذلك، كابدت الزراعة الهندية سلسلة من التناقضات. ففي الوقت الذي نمت فيه مخزونات الطعام في منشآت التخزين الحكومية، استمر ملايين الهنود على حالهم مهددين بسوء التغذية وبالجوع حتى الموت. وفوق ذلك، برغم نظام من معطيات الإعانات المالية للزراعة ودعم الحد الأدنى للأسعار الذي قدم للفلاحين، برغم ذلك استمر أفقر الفلاحين على حالهم مصابين بكارثة من نقائص كفاءة أنظمة الشراء والتوزيع الزراعية التي تديرها الحكومة، وهذا متكافئ في المضمون مع الفساد ونقائص الكفاءة. والفلاحون، وهم غير مطلعين على الأعمال التجارية الحضرية، يستغلهم وكلاء لا ضمير لهم في أسواق الحكومة، وهي أسواق مفتوحة كبيرة يبيع فيها الفلاحون سلعهم، ولكنهم نادراً ما يتسلمون تعويضاً عادلاً أو توزيعاً كافياً.

عند أكثر المستويات أساسيَّة يوجد اختلاف جوهري بين الإصلاحات الصينية والهندية، وهو أن الإصلاحات الصينية ركزت جهودها في المناطق الريفية، والهندية لم تركز فيها. في حالة الهند كان الموقف أشد مأساوية أيضاً؛ لأن البلد اكتشفت طريقة لإنتاج المزيد من الحبوب. والنجاحات في الهند مثل الثورة الخضراء لم تترافق أبداً مع خصخصة الشراء والبيع، والتسويق لمنتجات المَزارع. وفي الاستمرار في الاعتماد على أنظمة الشراء والتوزيع التي تديرها الحكومة، لم تصل الحبوب إلى أولئك الذين كانوا يحتاجون إليها أكثر من غيرهم.

خطوط دقيقة على نسيج القرى الهندية

جماعات العون الذاتي المشابهة لمنظمة سيوا تقدم إحدى الطرق للالتفاف حول التقييدات المفروضة من الطبقة. وبرغم أن عضواتها سبع مئة ألف، فسيوا، مع ذلك، تلامس القليلات جداً. بل إن مستقبلاً ألمع يوجد في الهيئات الهندية التي تصل إلى الفلاحين. فهند الهيئات، مثلها مثل المجتمع المدني، لا مثل السياسيين، منيعة على الإغراءات قصيرة الأمد من الانغماس بفساد الانقسامات إلى الطبقة. وفي الحقيقة إن نماذج الأعمال المؤسسية الشركاتية هي عادة أكثر اشتمالاً للجميع. فالشركات تريد أن تجعل السلع والخدمات تصل إلى أكبر عدد ممكن من الناس بدل اختيار الناس بالاستناد إلى الطبقة، أو إلى المعايير الاجتماعية.

ربما تكون شركة التبغ الهندية أبرز مثال على الحماسة المكتشفة حديثاً لدى هند الهيئات من أجل الأحوال المتخلفة للقرية. رئيس مجلس إدارة شركة التبغ الهندية، يوغي ديفيشوور، كان حديثاً قد أُعطي بروزاً خاصاً على غلاف مجلة إنديا توداي، وهي المجلة المكافئة في الهند لمجلة التايم. وعلى الرغم من أن الصورة أظهرت ديفيشوور مرتدياً بِذلة وربطة عنق، كانت اللفة الملونة ملتفة حول رأسه، وهي نوع اللفة التي تحمي ملايين المزارعين من شمس الهند التي لا ترحم في الظهيرة، والمنجل الثقيل يستقر على كتفيه ويعطي صورة رجل له مهمة. ولخصت المقالة المرافقة للصورة خطة الرجل، ولكن صورة الغلاف كانت قد أوضحت الفكرة، وهي أن ديفيشوور، رئيس هيئة خاصة ضخمة، ليس بيروقراطياً، وليس سياسياً، كان جاهزاً ليحوَّل الذي لا يقبل التحول، وهي القرية الهندية[23].

يوغي، وهو الاسم القصير الذي يلقب به واي. سي. ديفيشوور، هو لفظة سنسكريتية تعني الشخص الذي أدرك النرفانا الروحية أو السعادة الروحية القصوى، وهو "الحكيم بلا نهاية". وفي الوقت الذي لا يزعم فيه يوغي مثل هذا الزعم، فإنه خَبَر إدراكاً فطرياً مفاجئاً وهو أن تنمية الهند قابلة للاستدامة فقط، إذا بنيت على الأساس الاقتصادي الصلب لقرى أقوى. وكان دينج قد أدرك هذا القدر في الصين في العام 1978. ظاهرياً على السطح، يبدو جدول أعمال تنمية ديفيشوور المركَّز في القرية مثل "خمر قديم

في قواريـر جديـدة"، مشابه لرؤيـة المهاتما غاندي التـي انتشرت بالتفصيـل قبل ستين عامـاً. ولكن غانـدي أراد من الحكومة أن تقوم بتنفيذ رؤيتـه. أما ديفيشوور فلا يرى أي دور للحكومـة أو للسياسيـين في خطته. فهو يريـد أن يستخدم التقانـة والمهارة التجارية لاستحضـار الهند الريفية إلى التيـار السائد من الفكر والنشـاط. وعلى خلاف كثيرين مـن أصحاب الرؤى الحالمـين، كان ديفيشوور يمتلـك نموذجاً أولياً قابـلاً للعمل. وتحت قيادتـه أنشأت شركة التبغ الهنديـة مكان اجتماع إليكتروني. والفكرة هي وضع حواسيب مـع الوصـول إلى الإنترنيت في قلب القـرى، وبذلك أَقدَرتْ الفكـرةُ الفلاحين على تبادل المعلومات عن المحصول المتوافر.

ويتكشَّـف المشروع وفق هـذه الخطة: تختار شركة التبغ الهنـدي موقعاً لإنشاء مكانها للاجتمـاع الإليكتروني، وهو عـادة في قرية تكون قد بدأت فيها الشركة بشراء المحصول. ثم تقيم شركة التبغ الهندية حاسوباً مرتبطاً بالإنترنيت في بيت فلاح متعلم، فهو المزارع المضيـف. ومكان الاجتمـاع الإليكتروني المفـرد، والمربوط من خلال الهواتـف أو الأقمار الاصطناعيـة، يخدم وسطياً ست مئة فـلاح في القرى الواقعة داخل دائرة نصف قطرها يسـاوي ثلاثـة أميـال. ويستطيع أي فـلاح أن يصل يوميـاً إلى أسعـار المحاصيل اليومية والمعلومـات الأخـرى من دون أي كلفـة. وأما الفلاح المضيف فهو يعوَّض من شركة التبغ الهنديـة برسم على كل الصفقات التي تتم من خلال مكان الاجتماع الإليكتروني. وهكذا يكـون الفـلاح المتوسط في موقـع يتفاوض منه بنجاح مـع الوكلاء، ويستطيـع أن يتجنب تجنبـاً كامـلاً الأسواق الكبـيرة غير المنظمة، والقـذرة، والفاسدة في الغالـب. ويستطيع الفلاحـون كذلك استخـدام مكان الاجتمـاع الإليكتروني ليطلبوا مدخـلات زراعية مثل البـذور، والمخصبات، والسلع الاستهلاكية أيضاً من شركة التبغ الهندية أو من شركائها، وكل ذلـك بأسعار يمكن أن تكون أخفض مـن الأسعار المتوافرة من تجار القرية. في أثناء جنـي المحصـول تعرض شركة التبـغ الهندية أن تشتري المحصـول مباشرة من أي فلاح حسـب سعر الإغلاق في اليوم السابق، وهو السعر الذي يكون الفلاح واعياً به جيداً. وإذا تمـت الصفقة، يتم نقل المحصول إلى مركز تشغيل شركة التبغ الهندية. وفي المركز يوزن المحصـول إلكترونياً ويقوَّم من حيث الجودة النوعية. ويدفـع بعدئذ للفلاح السعر المتفق

عليه في الصفقة عن المحصول وأجرة النقل. وتمنح شركة التبغ الهندية نقاط علاوات إضافية للمحاصيل ذات الجودة النوعية التي تكون فوق المعتاد، وقابلة للاستبدال مع منتجات شركة التبغ الهندية.

وبقيام شركة التبغ الهندية بإقدار الفلاح على تجنب عملية الشراء الحكومية البيروقراطية، والمتعبة، والفاسدة، تكون الشركة قد حولت على نحو كامل حياة الكثيرين من الفلاحين في الهند الريفية. وبحلول أواسط العام 2003 كان أكثر من مليون فلاح في آلاف القرى قد استعملوا مكان الاجتماع الإلكتروني، وكان النظام يتوسع بسرعة، وبدأت شركة التبغ الهندية بعدئذ تستخدم قناة التوزيع هذه من أجل منتجاتها الأخرى. واليوم، استأجر يوغي فلاحين ووسطاء تقليديين في محاولة منه ليلمس كلَّ جزء من الهند الريفية بمكان اجتماع إلكتروني.

نموذج ديفيشوور منيع إلى حد كبير أمام التسلسلات الهرمية الاجتماعية الاقتصادية للهند الريفية. والاتهامات بأن المضيفين هم عادة أعضاء من الطبقات العليا تخفق في فهم جوهر الموضوع بأن المزارعين المضيفين يستمدون دخولهم من أكبر عدد من الصفقات التي تستطيع أماكن الاجتماع الإليكتروني أن تعقدها وتديرها. فالمضيفون لديهم الحوافز ليضموا طبقات الفلاحين لا أن يستبعدوها. وبذلك المعنى يمتلك نموذج ديفيشوور للتنمية الريفية الإمكانية لتغيير المظالم القديمة التي بقيت حتى الآن حية طوال أجيال بعد الذين حاولوا أن يكونوا مصلحين، ومن ذلك عاطفة غاندي نحو التغيير ومخططات العمل الإيجابي من الحكومة وهي مخططات حسنة المقاصد ولكنها سيئة التخطيط. الطبقة بكل بساطة ليست بذات علاقة بموضوع الهند المؤسسية الشركاتية، التي أدركت إدراكاً متنامياً أن المال يكتسب باحتواء الجماهير.

obeikandi.com

ثلاثية الحكومة، والمجتمع المدني والقطاع الخاص

بمعنى من المعاني، قام المجتمع المدني، والقطاع الخاص، لا الحكومة، بتقديم الصحة، والتعليم، وحفظ الصحة العامة للهند الريفية. وتجديدات سيوا وشركة التبغ الهندية مستندة إلى فكرة بسيطة ولكنها قوية، مستعارة من عالم التقانة وهي: كلما امتلكت الشبكة المزيد من المشاركين صارت الشبكة أقوى. فمكان الاجتماع الإلكتروني ينجح على نحو يتناسب مع عدد الفلاحين الذين يستخدمون المكان لعقد الصفقات والحصول على المعلومات. ومجموعات العمل في سيوا يلزم أن تكون كبيرة بشكل كافٍ لتقديم منافع التخصص ولتشكيل جماعة ضغط قابلة للتصديق من أجل إحداث التغيير. وهذه الحاجة إلى الأرقام تعني احتواء جميع الطبقات والفئات الاجتماعية.

هناك اقتران طبيعي للمنظمات مثل سيوا وشركة التبغ الهندية. بل إن الأعمال الخيالية، أماكن الاجتماع، تحدث في الغالب في القرى تحت شجرة كبيرة من أشجار تين البنجال. لقد شاركت سيوا مؤسسات عديدة. فمؤسسة سوق نساء القرية، مؤسسة فرعية مرتبطة مع سيوا تقدم التسويق، والإدارة، والخدمات الفنية لمجموعة كبيرة من المنتجين الريفيين، وكانت مؤسسة نساء القرية هي المجموعة التي كان عليها أن تعزز المحصول من أجل شرائه من قبل شركة التبغ الهندية، واعتمد سوق نساء القرية على شبكة واسعة من النساء المزارعات الفقيرات امتدت عبر أربع عشرة مقاطعة أقام سوق نساء القرية معها علاقات اجتماعية قوية. وفي الوقت نفسه رسخت شركة التبغ الهندية نفسها بوصفها مشترياً مصدقاً للمحصول النظيف. وهذه الشراكة أعطت أعضاء سيوا سعراً أفضل، وأعطت شركة التبغ الهندية محصولاً ذا جودة نوعية. طبعاً، ظهرت تحديات. وكما نصت إحدى وثائق سيوا عن الشراكة: "وجدت شركة التبغ الهندية عمل سيوا متكرراً ومتنوعاً. وكان على شركة التبغ الهندية أن تتعلم أن تضع النساء الفقيرات في المركز، لا الأرباح فقط. وكان على سيوا أن تتعلم أن تركز اهتمامها في الأنظمة التي تستطيع أن تحافظ على النمو السريع. فيكون المحصول الزراعي الجديد على جدول الأعمال من أجل التوسع.

التناضح بين المجتمع المدني والقطاع الخاص لا يمتد بالسهولة نفسها إلى الشراكات مع الحكومة. وهكذا فالكيفية التي يستطيع بها الإصلاح الواسع النطاق أن يتحقق من دون اشتراك الحكومة ومبادرتها تبقى مسألة غير محلولة في جهود التنمية في الهند الريفية. وقد شرحت ذلك ريما نانافاتي، وهي إحدى المديرات الرئيسات لمنظمة سيوا، فقالت: "سيوا تمثل وتحفظ قيمها من العلمانية، والحقيقة. إنها تمتلك قاعدة عضوية كبيرة، وبقيت مع ذلك منظمة غير سياسية، ولذلك فبعضهم يتصورها تهديداً". وأكدت لي أن "سيوا قد تشاركت دائماً مع الحكومة: على مستوى الولاية والأمة، لتعالج قضية الفقر". ولكن الحكومة لم تتبادل المشاركة دائماً. ومرة كتبت لِيَ نانافاتي لتعبر عن محنة في نزاع مستمر مع حكومة الولاية. ووفق ما تقوله نانافاتي، سحبت الحكومة على نحو غير متوقع التزامها المالي السابق لجهد إغاثي، تاركة بذلك سيوا وهي تحمل الحقيبة وعليها نفقات كبيرة نوعاً ما جرَّتها عليها. وأجبرت النساء المسكينات على الاستدانة بمعدلات فائدة عالية؛ ليتدبرن الموقف ويعبرنه.

لا أملك الكلمات لأقول كم أحس بالانزعاج؛ لأني أعود من مومباي إلى أحمد أباد من دون الذهاب إلى نيويورك من أجل مبادرة كلينتون العالمية. إن أزمة أجبرتني على إلغاء زيارتي. طوال الأشهر الستة الماضية هناك 12000 امرأة فقيرة تستنقذ أحوالها نتيجة زلزال، وهن عضوات في سيوا ولم يتسلمن أي أجور، وهي أجور تراجعت عن دفعها حكومتنا الخاصة، حكومة غوجارات تحت سبب أو آخر. وكانت المفاوضات السليمة والبناءة تصل إلى نهايتها. والمسألة، وهي حساسة جداً بالنسبة إلى عضواتنا من أديان مختلفة، قد تطورت فجأة في وسائل الإعلام في هذه الليلة. وليس لدينا أي فكرة عما يحمله لنا صباح الغد. يجب علي أن ألتحق بزميلاتي في أحمد أباد؛ كي نواجه المسألة[24].

وبرغم عمل سيوا الجيد، فمن المحتمل أنها وصلت إلى النزاع مع بعض المصالح الثابتة. والمصالح الثابتة موجودة، طبعاً، في الصين الريفية كذلك. معظم مؤشرات الفساد، مثلما أنتجتها الجهات المتعددة مثل (الشفافية الدولية)، تصنف الصين والهند بوصفهما كلتيهما فاسدتين تماماً. أحد الاختلافات المهمة، على كل حال، هو أن مسؤولي

الحكومة في الصين الريفية يملكون حوافز ليزيدوا حجم الكعكة الاقتصادية. فأخذهم الزبدة العليا لا يقلل من حقيقة أن الكعكة الناتجة مازالت، عموماً، أكبر مما كانت عليه في عصر ما قبل الإصلاح. وفي الهند يحدث أخذ الزبدة العليا من دون أي قيمة مضافة من طرف الدولة. وقد ترك القطاع الخاص والمجتمع المدني؛ ليملأ الفراغ.

والأخبار الجيدة هي أنه ليست كل تجارب التعاون مع الحكومة الهندية تكابد نتائج كارثية مثل تلك التي خبرها ضحايا الزلزال في غوجارات. شخص واحد يعمل بنجاح لتضييق الفجوة بين الكيانات العامة والخاصة، وهذا الشخص هو فيشال سيهغال، وهو موظف سابق من برامج المبادرة الاجتماعية لآي سي آي وخريج مدرسة كيندي للحكومة، وكنت قد قابلته لأول مرة حين كان طالباً في فصلي للخريجين عن الأسواق الصاعدة. ولاحظتُ سيهغال لأول مرة وهو يمشي مجهداً عبر الجسر الذي يربط مدرسة كيندي مع مدرسة هارفارد للأعمال. وما لفت انتباهي إليه هو حقيبته المعلقة بكتفه. فبدل الحقائب السوداء المدرسية المخصصة للكتب، أو الحقائب الخشبية التي تحمل على الظهر والشائعة في الحرم الجامعي، كان سيهغال يحمل كتبه في حقيبة قماشية عرفتُ أنها مشغولة باليد في الهند، وهي عادة تلبس بوصفها ملمحاً مميزاً "للزي" الموحد للشخص الواعي اجتماعياً ويعمل في أماكن مثل سيوا. وبرزت ألوانها الزاهية في كيمبردج الرمادية بالطريقة نفسها التي يبرز فيها عمل سيهغال في الهند وفي مدرسة الأعمال في هارفارد. ولم أستطع إلا أن أفكر في أن الجسر الذي عبره كان هو أيضاً مجازاً رمزياً للجسور التي يعبرها بين مؤسسة مدرسة هارفارد للأعمال وعالم المجتمع المدني.

وفي أثناء درس مناقشة في أحد الأيام وضع سيهغال تحت نظري وانتباهي المنظمة غير الحكومية المقيمة في مومباي التي يعمل فيها، وهي براتهام (واللفظة بالهندي تعني "أولاً"). وشرح لي أنها كانت قد أنشئت لمساعدة الحكومة على نشر التعليم الابتدائي. وكان أحد أنجح برامج منظمة براتهام هو برنامج بولوادي لما قبل المدرسة، الذي استهدف الأطفال في الفئة العمرية من ثلاثة أعوام إلى خمسة أعوام من أخفض العائلات دخلاً في المدن الحضرية. وجميع المعلمين متطوعون، يأتون من المجتمع نفسه. وكان برنامج

بولـوادي في مومبـاي ممولاً حتى حينه من خـلال المنح المؤسسيـة الشركاتية ومن أموال قدمها الهنود المقيمون في هيوستون، ونيويورك، ونيوجيرسي. وقدمت حكومة الهند أيضاً منحـة من 145 مليون روبية (360,000 دولار) من أجـل العمل مع الأطفال في فئة عمرية أعلى من السابقة في 1999-2000 [25].

وشرح سيهغـال فلسفة منظمة براتهام، فقال: "أنت لا تستطيع أن تتجاهل الحكومة، إنهـا كبـيرة جداً وتمتلك الكثير جـداً من الثوابـت. وغايتنا هي أن نجعلهـا أكثر كفاءة. فنحـن لا نستطيـع أن ننشئ نظام تعليـم موازياً بشكل كامل. فالحكومـة تستثمر ملايين مـن الروبيـات في التعليم، ولكننا نستطيـع أن نستخدم مال الحكومـة استخداماً أفضل، ونجعـل أموالهـا تذهب إلى المزيد". وأضـاف يقول: "والفكرة التـي تكمن خلف منظمة براتهـام والرؤية فيها كانت ثلاثية النواحـي، الأولى، هي العمل مع الحومة، والثانية، هي إدارتهـا بمـال خاص، وبمهارات إدارة الأعمال، والثالثـة، أن نجعلها مملوكة من المجتمع المـدني"[26]. وقد ساعدت آي سـي آي سي آي على توسيع أنشطة براتهام لتمتد إلى ثلاث عشـرة ولاية في الهنـد، وجمعت أموالاً من الحكومات المحليـة، والمواطنين المحليين، ومن مجتمـع الأعمـال. وشبكـة براتهام مستخدمـة أيضاً لتقـديم الصحـة الأساسية وتعليم الحاسوب. وفي العام 2000 كانت جائزة شبكة التنمية العالمية، التي يرعاها البنك الدولي وحكومـة اليابان، قـد منحت لمنظمة براتهـام، للاعتراف بها بوصفهـا واحدة من ثلاثة مشروعات هي "أهم مشروعات تنمية مجددة".

وكما صاغها سيهغال، "المفتاح هو تجنب حرب النفوذ مع الحكومة، وإنشاء الضوابط والزواجر لجعل عمل الحكومة أكثر كفاءة".

هوكو والطبقة اليوم

شـاآدي. كوم shaadi. com موقع مباشر للتوفيق بين طالبي الزواج للشباب والشابات الهنود، وهو النظير الحديث للعرافين البراهمة وأمهات العائلة في الأيام الخوالي. والموقع علـى شبكة المعلومـات العالمية، مثل مواقـع أخرى من نوعه، يخدم بصفـة غرفة مقاصة إليكترونيـة للعزاب الشباب الذين توضع صورهم مـن آباء مطلعين على الإنترنيت أو من

أصدقاء مهتمين أو من إخوة أو أخوات. وليس مثيراً للدهشة أن "البحث المتقدم" عن الشريك المحتمل يقدم للنقاش فصلاً بعنوان "الخلفية الدينية والاجتماعية" وفيه توضح تفاصيل الطبقة بشكل شائع.

وشاآدي. كوم تدقيق جيد على الواقع الحقيقي للأهمية المستمرة للطبقة، ودليل على أنها تبقى جزءاً من الحياة اليومية في الهند، حتى في الهند الحضرية المتقدمة. وعلى الرغم من أن رئيس الهند الجديد، كي. آر. نارايانان، هو من الداليت، منبوذ من المنبوذين، تبقى الطبقة لا مجرد أمر مهم رمزياً فقط في الهند القروية بل عامل محدِّد في الوجود الاقتصادي.

في الصين تتضاءل أهمية الهوكو، وخصوصاً بالنسبة إلى الأشخاص المتعلمين بين صفوف الشعب الصيني العامل. ولكن الهوكو رمز لسلطة الحزب، وهي سلطة تبقى إلى حد كبير لا تحد، برغم كونها خضعت للاختبار بتراث اللامركزية الاقتصادية وفقدان بيجين للمعلومات عن الصين الريفية.

وعلى خلاف المصالح الخاصة المستندة إلى الطبقة في الهند، لا تدين الحكومة الصينية بالفضل لأي مصالح خاصة غير مصالحها. وقد أدى زوال الوهم باللامساواة في الدخل إلى احتجاجات تغلي في الصين الريفية، وهي تجبر الحزب الشيوعي الصيني على أن يراصف مصالحه مع مصالح الشاطئ الشرقي والدلتا الجنوبية لنهر بيرل، وهي محط التركيز لمعظم النمو الاقتصادي في العقود الماضية. وعلى سبيل المثال، فخط السكة الحديدية الذي اكتمل حديثاً إلى لهاسا، عاصمة التيبت، سوف يأتي، على ما يحتمل، بالتنمية الاقتصادية إلى المقاطعة، وهو على ما يرجح محاولة لشراء الولاء من الشباب التيبتيين. ومن المحتمل أن يعمل خط السكة الحديدية على خنق الثقافة التيبتية. ولكنه غير مثير للدهشة أيضاً أن التنمية المادية للبنية التحتية التي تقودها الدولة في الصين تتناقض مع مدخل الهند إلى التنمية من البداية تماماً.